

قضية الفصحي والعامية

الاستاذ ساطع المصري

فإن كل امة من الامم تحتاج الى لغة « موحدة »
تزيدها تجاويا وتماسكا ، ف تكون « موحدة » .

لأن مهمة اللغة - في الحياة الاجتماعية المعاصرة
الحالية - لا تنحصر في ضمان التفاهم بين المخاطبين
الذين يعيشون في قرية واحدة او مدينة واحدة ، ولا
بين الذين ينتسبون الى اقلية واحد ، او قطر واحد ،
بل هي ضمان التفاهم والتكتيب والتلاقو .. بين
جميع ابناء الامة ، على اختلاف مدنهم واقطافهم .

والتاريخ الحديث مليء بامثلة بلية ، على
الجهود الجباره التي بذلها ، ولا يزال يبذلها ، عدد
غير قليل من الامم والدول في هذا السبيل
توطنة لاستقلالها او ضمانا لوحدتها .

فنحن العرب نفتقر اليوم الى (لغة) يتفاهم
بها جميع الناس في جميع الانطارات العربية .

ولكن ما السبيل الى ذلك ؟

ماذا يجب ان نعمل للتخلص من البلبلة الحالية ،

ان قضية الفصحي والعامية ، من اهم المشاكل
التي تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم ،
في مختلف البلاد العربية ، منذ مدة غير يسيرة .

ذلك لأن الفصحي لا يعرفها الا المثقفون ، ولا
يتخاطب بها الا طوائف محدودة من هؤلاء . وأما
العامية الدارجة ، فكثيرة الانواع تختلف اختلافاً بينا
لا من قطر الى قطر محسب ، بل من مدينة الى مدينة
في القطر الواحد ايضا . حتى أنها تختلف بعض
الاختلاف من حارة الى حارة ، ومن جماعة الى جماعة
في المدينة الواحدة ، في بعض الاحيان .

اذن فنحن - عرب اليوم - بين لغة فصحي
يتناهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية ،
وبين لغات عامية عديدة يتفاهم بكل منها جميع
الناس ، في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد
العربية .

ولا حاجة الى القول ان هذه الحالة مخالفة
للتضييات الحياة القومية السليمة ، من وجوه عديدة .

— تتطلب القيام « بابحاث علمية » واسعة النطاق،
تناول الفصحي والدارجات في وقت واحد ، وتدرس
القضايا بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع
وجوهها .

أولا ، يجب أن نبحث : ما هي الحدود الفاملة
بين الفصحي والعامية ؟ ما هي الفروق التي تميز
الأولى عن الثانية من حيث المفردات
وكيفية نطقها من ناحية ، ومن حيث التراكيب وأسلوب
ترتيبها من ناحية أخرى ؟

وفي أمر المفردات : هل يجوز لنا أن نعتمد
على المعاجم والتواقيع المعلومة كل الاعتماد ؟ يجب
أن نذكر في ذلك ملبا ، لأنه من المعلوم أن تلك المعاجم
مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التي لم يعد أحد
يشعر بحاجة إلى استعمالها ، ومتقابل ذلك أنها
خالية من عدد غير قليل من الكلمات التي استعملها
ولا يزال يستعملها أشهر العلماء والأدباء في أهم
آثارهم العلمية والأدبية ، كما أن الكثير من الكلمات
القاموسية تستعمل الآن في معانٍ مختلف عن المعانٍ
التي كان قد دونها التقدماء كل الاختلاف . فلا بد لنا
من أن نبحث عن معيار آخر يساعد على تمييز
الفصيح عن العامي تميزا معقولا .

وفي أمر التواعد : هل يترتب علينا أن نعتبر
آراء العلماء القدماء القول الفصل فيها ؟ ألم يختلف
هؤلاء أنفسهم فيما بينهم في أمور التجويف والتفضيل
والترجيع ؟ ألا يحق لنا أن نعيد البحث والنظر في
تلك الأقوال والآراء ، وأن نسلك مسلكا يختلف عن
مسالكهم في أمر التجويف والتفضيل ؟ وهل يتحتم
علينا أن نسمى وراء نشر وتميم تلك القواعد
بـ« بحافيرها » ؟ ألا يمكننا أن نستفيق عن البعض منها
لنجعلها أقل تعقيدا وأكثر قابلية للانتشار ؟ وفي الأخير ،
لو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد ، ألا
يجب علينا أن نرتقبها ترتقبا معقولا ، لتقديم الامر على
المهم ، ونسير على قاعدة التدرج في جهودنا
« التفصيحية » ؟

ثانيا : يجب علينا أن ندرس اللغات العامية
واللهجات المحلية ، المنتشرة في مختلف البلاد العربية:
ما هي أنواعها ؟ وما هي خصائص كل نوع منها ،

والتنعم بنعمة « لغة موحدة موحدة » في جميع الاتطار
العربيّة ؟

إذا تأملنا في هذا الأمر بالمنطق المجرد خطر
على بنا ثلاثة سبل أساسية :

(أ) السمع وراء نشر وتميم لغة من
اللغات الدارجة — أي لهجة من اللهجات العامية —
على جميع البلاد العربية ..

(ب) السمع وراء نشر اللغة الفصحي ، بين
جميع طبقات الشعب ، في كل قطر من الاتطار
العربيّة .

(ج) السير على طريقة متوسط بين الأولى
والثانية ، على تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحي ؟

ولا حاجة للبيان أن الطريقة الأولى — أي تعميم
واحدة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية
— غير منطقية وغير عملية ، فلا بد من التوجه إلى
اللغة الفصحي ، التي لها جذور عميقة وواسعة
متينة ، وممثلون أقوياء ، في جميع البلاد العربية ،
لذلك يحسن بنا أن نحصر البحث والنقاش في الطريقتين
الأخيرتين ووحدهما :

من المعلوم أن تواعد الفصحي ، في حلتها
الحاضرة ، مقدمة كل التعقيد ، وصعبه أشد
الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجات الدارجة بعدها كثيرا ،
فيجدر بنا أن نتساءل : هل من الضروري أن نتمسك
بجميع تلك القواعد التي وضعها أو دونها اللغويون
منذ قرون عديدة ؟ هل يتعتمد علينا ان نصرف قوانا
في سبيل نشر وتميم جميع تلك القواعد والآساليب ؟
الإ يمكن أن نختصر ونبسط اللغة الفصحي ، ونشذبها
تشذيبا معقولا ، يكتبها شيئا من السهولة ، من
غير أن ينقدها ميزتها التوحيدية ؟ ألا نستطيع أن
نظم اللغات الدارجة باللغة الفصحي تعليميا يبعدها
عن حذفة علماء اللغة ورطانة عوام الناس في وقت
واحد ، فيوصلنا إلى فصحي متوسطة ، معتدلة ؟
ألا يحسن بنا أن نلجم إلى هذه الطريقة ، ولو بصورة
مؤقتة ، كمرحلة من مراحل السير والتقدم نحو
الفصحي التامة ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة — أجابة صحيحة

ثم ان ازدياد التواصل والتعامل والتزاور بين المدن والأرياف من جهة ، وبين الاقطاع المختلفة من جهة أخرى ، أدى الى حدوث تغير محسوس في اوضاع اللهجات المحلية وفي التعبير العامية ايضاً : سارت لهجات بعض العواصم تؤثر تأثيراً كبيراً في اللهجات الفرعية ، كما ان لغة عامة الناس ايضاً اخذت تهذب وتتطور بتاثير انتشار التعليم ، وازدهار الصحافة ، وتعريب دواعين الحكومة ، وتنامي الحياة النيابية .

ولا نغالي اذا قلنا : انه اخذ يتكون في بيئات المثقفين في جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشيء الكثير من خصائص النصحي ، وتباعدت عن الكثير من أساليب العامية .

فيحسن بنا ان ننبعق ونتوسيع في درس هذه التطورات وتدوينها ، لنتقييد منها ونستبر بها في تحرير خططنا الاصلاحية .

* * *

يبين من كل ما تقدم ان الابحاث اللغوية لا يجوز ان تبقى محصورة بين صحف الكتب والمعاجم المعلومة ، بل يجب ان تخرج الى ميادين الحياة الاجتماعية ، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ في تلك الميادين بصورة فعلية .

ويجب ان لا ننسى ان علماء اللغة القدماء تجولوا بين القبائل ودونوا ما سمعوه وما لاحظوه بكل تفصيل واهتمام . فيحسن بنا ان نقتدي بهم فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام ، في كل مدينة وفي كل بيئة ، بين الزراع والعمال ، بين البنين والبنجر ، في المدن والأرياف، بين الرجال والنساء ، بين الكهول والاطفال .

ولا يجوز ان نتقاعس عن العمل في هذا المسبيل بحجة الاكتفاء باللغة النصحي .. اذ يجب علينا ان نعلم علم اليقين بأن تغيير الاشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواميسها .

من حيث الكلمات والالناظ والتعابير ؟ وما حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات والاساليب والتعابير ؟ وما هي اسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحي من ناحية ، وبعضها عن بعض من ناحية اخرى ؟ الا يوجد بين الكلمات الدارجة في بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق ؟ الا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة مشتركة ؟ الا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشتركة على وجود دوافع عامة وضرورات مشتركة ؟ اولاً يجب علينا ان نستكشف هذه الدوافع وال حاجات ، لكن نستطيع ان نعالجها بأساليب اقرب الى الفصاحة على قدر الامكان ؟

ان كل هذه الامور والسائل يجب ان تدرس وتحتى بكل اهتمام .

وفضلاً عن ذلك يجب علينا ان نتبع التطورات التاريخية ايضاً : من المعلوم ان اللغة كائن حي ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع ، وينمو تبعاً لنمو الانفكار وتنوع الحاجات ، اذ لكل كلمة وكل اسلوب ، في كل لغة وفي كل لهجة تاريخ طويل او قصير ، ماضٍ قريب او بعيد .

ان نظرية فاحصة سريعة الى ما طرا من تحولات على اللغة العربية في مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريباً – منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى مثلاً – تكفي للتتأكد من صحة ما قلناه آننا : لقد حدثت تطورات كبيرة في لغة الدواوين ، وفي لغة الصحف ، وفي لغة التخاطب في مختلف البيئات ، في جميع البلاد العربية ، فقد دخل في كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة ، مشتقة من اصول فصيحة ، او مقتبسة من لغات اجنبية . ومعظم هذه الكلمات المقتبسة كانت فرضية في بعض البلاد العربية وانكليزية في بعضها الآخر ، وذلك تبعاً للاوسع السياسية الخاصة التي طرأت على كل واحدة من تلك البلاد . ومن جهة اخرى بدات حركة معاكسة لذلك لترك تلك الكلمات الاجنبية واستبدال كلمات عربية بها .